مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 08 / العـدد: 02 (2022)، ص 739- 758

الفلسفة وسؤال إيتيقا العلوم المعاصرة في مجتمع المعرفة

Philosophy and the question of ethics of contemporary sciences in the knowledge society

تيرس حبيبة [*1]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)، tires.habiba@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/23 تاريخ القبول:2022/08/29 تاريخ النشر: 2022/12/28

ملخص:

يعتبر التوجه نحو المعرفة من أهم سمات الكائن البشري على مر العصور، لكنها تبدو اليوم أكثر دفعا من أي وقت مضى بسبب التطورات العلمية الحاصلة في مختلف الميادين، أين أصبح إنتاج المعرفة وامتلاكها هو معيار بناء ما يعرف اليوم بمجتمع المعرفة، غير أن هذه الثورة العلمية والتكنولوجية انعكست تطبيقاتها على المنظومة القيمية للمجتمع الإنساني وطرحت قضايا أخلاقية جديدة أصبح على مجتمع المعرفة حلها، الأمر الذي استوجب عودة الفلسفة بقوة وقف أدواتها النقدية للبحث في مصير الإنسانية ومستقبلها على ضوء مستجدات المعرفة العلمية. وعليه سوف نعالج في هذا المقال أهم القضايا الأخلاقية التي طرحها العلم المعاصر في مجتمع المعرفة.

كلمات مفتاحية: مجتمع المعرفة، الاتيقا، القيم الاخلاقية، الفلسفة، العلم

Abstract:

The direction to the knowledge is considered as the most important characteristics of human being throughout the ages, but nowadays it is appearing to be more pushed than the times passed, because of the scientific development done in different fields, where the production of knowledge and holding it is the norm of building what is known now as the knowledge society, nevertheless this technological and scientific revolution has its application's reflection on the valuable system of human society and it creates new ethical topics which the knowledge society should solve it. Accordingly, in this article we will address the most important ethical issues raised by contemporary science in the knowledge society.

Keywords: Knowledge society, ethics, moral values, philosophy, science.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن مصاحبة التفكير الأخلاقي الفلسفي للتفكير العلمي ليست بالأمر الجديد، فلقد شكلت المعرفة بأدواتها ومصدرها ونتائجها أهم المباحث الفلسفية، والرجوع إلى سؤال الأخلاق في مجتمع المعرفة هو من باب الرجوع إلى التفكير الفلسفي باعتباره يمثل موقف انتقادي من الوجود ومنهج في التساؤل يستهدف فحص الوجود بكل مكوناته، فالمشاكل التي يطرحها استخدام العلم اليوم هي التي استوجبت عودة الفلسفة بقوة وقف أدواتها النقدية للبحث في مصير الإنسانية ومستقبلها على ضوء مستجدات المعرفة العلمية .

لذلك يعتبر البحث حول الانحرافات الأخلاقية التي ترتبت عن استخدام العلم من البحوث المعاصرة التي تزامنت مع مجتمع المعرفة بسبب التقدم العلمي الهائل ونتائجه المعقدة التي ميزته، والتي كان لها أثر واضح المعالم على منظومة القيم الإنسانية، الأمر الذي أثار سؤال أخلاقيات العلم في مجتمعات المعرفة وظهر على اثره مصطلح جديد يوافي التساؤلات الفلسفية ذات الصبغة الاخلاقية لنتائج العلم والمعرفة على الانسان عرف باسم "البيوتيقا"

وعليه نطرح التساؤل التالي: ماهي أهم القضايا الاخلاقية التي طرحها التفكير الفلسفي ايزاء نتائج العلوم المعاصرة على الانسان في ضوء مجتمع المعرفة؟

2. المساءلة الأخلاقية للعلم في مجتمع المعرفة:

إن القول بضرورة ارتباط المعرفة بالأخلاق لم يظهر إلا في ضوء المشاكل التي طرحها العلم مؤخرا نتيجة استخداماته التي أصبحت تهدد كيانه الإنساني خاصة فيما أصبح يعرف بمجتمعات المعرفة، (عزاز، 2007، ص 217) ويجدر القول أن ظهور مصطلح مجتمع المعرفة كان نتيجة التطورات والعلاقات المتشابكة مع مجموعة من المصطلحات الأخرى مثل مجتمع المعلومات الذي لا يختلف كثيرا عن مجتمع المعرفة، والذي ظهر نتيجة لثورة انتشار استخدام الحواسب الشخصية في الدول الصناعية الكبرى في العقود الأخيرة فيما أطلق عليها ثورة المعلومات، ثم ظهر على إثره مصطلح تكنولوجيا المعلومات على اعتبار أنه وريث المجتمع الصناعي، وظهرت بعدها مرادفات كثيرة لمصطلح مجتمع المعرفة مثل المجتمع ما بعد الصناعي ومجتمع ما بعد الحداثة ومجتمع الشبكة. ويعتبر أن المعرفة هي أساس كافة الأنشطة الاقتصادية والسياسية والثقافية وحتى المجالات الإنسانية الأخرى. (عزاز،2007، ص194)

فالقول المعقول والسائد من قبل هو أن العلم جعل لخدمة الإنسان ولتطوره ، مما أدى إلى تبني النظرة التفاؤلية بنتائج العلم لمدة طويلة. لذلك ارتبط العلم بالسلم لا بالحرب باعتباره نتاج العقل، وأن العقل لا يعترف بلغة العنف في فض المنازعات بل يحتكم إلى المنطق السليم، "وهذا ما تصوره الفلاسفة في عهد الاستنارة الفكرية في القرن 18 حين أكد العقل انتصاره على الخرافة والتعصب، وأن انتشار العلم سيزيد من سعادة الإنسان ومن سلامته وعلى رأسهم " كانط" الذي آمن بمعقولية العلم للوصول إلى تحقيق السلام الدائم وفي هذا تجاهل كبير لعنصر المصالح والأحقاد والأطماع. (زكرياء، 1978، ص 194)

ومن دون أن نبتعد كثيرا عن فكرة "كانط" حول قيمة العلم فإننا نجد أيضا الفيلسوف الانجليزي "فرنسيس بيكون" الذي نحا قبله نفس التوجه في إبراز ايجابية العلم وانبهاره بنتائجه، حيث عرف بمقولته المشهورة " العلم قوة" أي قوة في يد الإنسان وسلاح يسيطر به على الطبيعة ويكيّفها وفق مصالحه، ولكن لم يكن في ذهنه أنه سيتحول مستقبلا إلى نقطة ضعف في يده ليتحكم في مصيره الإنساني وفي كل قيمه ومبادئه الأخلاقية.

لقد كانت الأخلاق في البداية منفصلة عن ما يعرف بالإبستيمولوجيا، أو فلسفة العلم التي كانت تعتبر فلسفة معرفية خالصة لا علاقة لها بفلسفة القيمة، لأن اهتمامها الأساسي كان منصبا حول سؤال عوامل وأدوات تحقيق النجاح في العلم الحديث المبني على أحكام الواقع والتجربة وليس على أحكام القيمة، "وهكذا اقتصرت فلسفة العلم على النظرة إلى العلم من الداخل، لتتمثل فقط في منهجه ومنطقه، ولا شان لها بأي مقولة تتجاوز الإطار الابستيمولوجي لنسق العلم، من قبيل الأخلاقيات والمعيارات والقيم، فضل عما ينطوي عليه هذا من مساءلة نقدية".(برزنيك، 1978، ص 9)

وذلك انطلاق من منظور أن "العلم لا يفكر تفكيرا فلسفيا لأنه لا يفكر تفكيرا أخلاقيا"، فالمقاصد الروحية والغايات الأخلاقية لا تدخل في صلب مشاغل العلم واهتماماته، وذلك بدءا من منطلقاته المنهجية ذاتها، ومن فصله منذ البداية بين حكم الواقع وحكم القيمة وبين القبليات والبعديات وبحكم استبعاده لأي منظور غائي، فالعلم في عمقه بحثي وكشفي وصفي وتشريحي، أما القيم الإيديولوجية والقيم الميتافيزيقية والأخلاقية لا تدخل في صلب اهتمامات العلم. (بن شريط، 2012، ص 201)

فالعلم في جزء كبير من تاريخه عبّر عن نشاط نظري صرف ولم يقترب من مجال الأخلاق، إذ كان هناك اختلاف جوهري بين الاستخدام النظري للعقل في المعرفة وبين استخدامه العلمي في الأخلاق، وتداخل العلم بالأخلاق لم يحدث فجأة بل مر بعدة مراحل وبالتدريج، فبعد انهيار المثل الأعلى القديم للمعرفة في العصر الحديث وهو " العلم لأجل العلم" بدأ ظهور شعار آخر وجديد للعلم يدور حول فكرة " العلم من أجل التحكم والسيطرة على الطبيعة"، لينتقل هدف التحكم والسيطرة للعلم إلى مجال الإنسان من أجل فهمه وتوجيه سلوكه، وهذا الأخير هو الذي قرّب بين المعرفة العلمية وبين التطبيق العلمي، لأن العلم أصبح يمثل بذاته نوع من السلوك. (زكرياء،1978، ص 228-229)

بهذا لا يمكن اعتبار المعرفة تراكما معرفيا بل هي "إبداع اجتماعي نسقي واستثمار توظيفي هادف في تكامل بين فنونها، ونشاط تجديدي من خلال الفعل والفكر في تغذية متبادلة.. وتطويرا متجددا لعناصر وعلاقات ذهنية أي يثمر عقلا جديدا، وإنسانا جديدا مع عالم متجدد" (طيبي، 2008، ص 134)

وعليه بعدما كانت مسألة البحث عن القيمة بعيدة تماما عن حقل الابستيمولوجيا، "أضحى اليوم بما يسمى بـ" أنسنة العلم"، أي النظر إليه باعتباره ظاهرة إنسانية مما يفي ضرورة البحث في سائر أبعاده الحضارية، ومساءلة العلم أخلاقيا". (علالي ، 2015، ص 108)

الأمر الذي أدى في النهاية إلى إثارة مجموعة من المشكلات التي تتعلق بكيفيات استخدام العلم والجوانب التي يطبق عليها وكذلك البحث في نتائجه، وهذا النوع من الأسئلة لم يكن مطروحا من قبل في العلم، وهكذا ازداد التقارب والتداخل بين مجال العلم الذي اقتحم ميدان النفس الانسانية ومجال الأخلاق، باعتبار أن الإنسان يمثل مصدرا للقيم خاصة في مجتمعات المعرفة التي تغلغلت فيها التطبقات العلمية التي مست مباشرة حياة الإنسان كالبيولوجيا والطب. وظهر على إثر ذلك ما يعرف "بأخلاقيات المعرفة". والتي يقصد بها مجموعة المبادئ التي تحدد ما هو صائب أو خاطئ فيما يتعلق بالمعرفة أو السلوك المعرفي لأصحاب المعرفة، إذ يجب أن لا ينخرط أفراد المعرفة فيما يمكن أن يسبب الضرر والأذى للآخرين، وأن لا تصبح المعرفة مصدر ضرر للآخرين أو تحقيقا لمصالح ذاتية بتحولها إلى قوة في يد أصحابها لعمل ما هو غير مشروع عن طريق إنتاجها بطريقة ووسائل غير أخلاقية. (الجوزي، 2014، ص 23 -24).

3. أهم القضايا الأخلاقية للعلوم المعاصرة في مجتمعات المعرفة:

لم يبقى العلم مجرد تماثلات كما كان الحال في السابق، بل أصبح عبارة عن عمليات ملموسة تخص جميع جوانب الحياة بما فيها الإنسان، وهذا ما أدى إلى احتلال المسائل العلمية الصدارة في

الفكر المعاصر على حساب المسائل النظرية "ومما زاد هذا التوجه قوة هو أن هذا التحول من النظري إلى العملي حصل في مجال يخص الإنسان وليس الطبيعة كما كان الحال من قبل، فالعمليات تجرى الآن على الإنسان والتي وضعت إنسانيته في خطر". (غريب، 2009، ص 191)

وفي خطورة استعمال المعرفة على الإنسان يقول الأديب والشاعر "روبرت بن وراين":" إن غاية الإنسان هي المعرفة، لكن يظل هناك شيء واحد لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فهو لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت المعرفة ستقتله أم ستنقذه. هو سيُقتل، حسن، ولكنه لا يستطيع أن يعرف هل سيُقتل بسبب المعرفة التي حصل عليها، أم بسبب المعرفة التي لم يحصل عليها، وما هي المعرفة التي إذا ما امتلكها سوف تنقذه." (البقصيمي، 1993، ص19)

وهكذا أصبح العلم في عصر مجتمع المعرفة مدفوعا بسلطة الرغبة لا بسلطة تقصي الحقيقة فهو عصر تقني قتل فيه كل معاني الإنسانية، وأصبح الإنسان مهددا بكل أنواع المخاطر التي تزداد بغياب القيم الإنسانية الأمر الذي احدث ما يسمى بالفراغ الأخلاقي الذي أسفرت عنه الأنانية وحب الذات والسيطرة وغيرها. (باخوس، د. ت، ص 109)

لقد بلغ المشكل الأخلاقي ذروته لأول مرة مع تطور الفيزياء التي أنتجت ما يعرف بالقنبلة الذرية التي تم تفجيرها، حيث خلق هذا الفعل الشنيع حسب تعبير الفيلسوف "ميشال سير" أزمة ضمير ألقت بظلالها على جيل كامل من العلماء". (معلوف، 1997، ص 52) ثم ظهرت بعد ذلك قضايا أخلاقية أخرى جديدة صاحبت تطور العلوم في مجتمع المعرفة، إذ يمكننا تلخيصها وبيان مخاطرها على القيم الأخلاقية للإنسان في النقاط التالية:

1.3.قضايا الهندسة الوراثية:

إن التحرر من المسؤولية الأخلاقية للعلم الذي أصبح يتطور من دون أي ضوابط اتيقية تحدد مجال استخدامه أحدث توجها كبيرا في مجال الدراسات البيولوجية إلى مسائل الاستنساخ وتطوير الدراسات حول الشفرة الوراثية وتشجيع الأبحاث حول الزراعة المعدلة جينيا. (سبيلا ، 2006، ص 67)

إن تطبيق الهندسة الوراثية على الجنس البشري يقوم على فكرة التحكم في الجهاز الوراثي للإنسان، وبالتالي إمكانية برمجة الجنس البشري وفق تصميمات موضوعة سلفا، وبالتالي بدأ العلماء اللعب بأهم خصوصيات الإنسان وهي شفرته الوراثية، أي القدرة على تبديل الإمكانيات الوراثية

للكائن الحي إما لتخليق صفات مرغوبة كالذكاء والنبوغ والملكات الفائقة أو لإضافة صفات لم يكن يملكها من قبل بالتحكم في التشكل والنمو كإنتاج الإنسان العملاق.

وعلى هذا الأساس ظهرت جملة من المخاوف التي أصبحت تهدد الجانب الأخلاقي للإنسان من إمكانية حدوث مخاطر نتيجة تطبيقات الهندسة الوراثية كاستحداث كائنات حية مدمرة، أو الإخلال الشديد بالطبيعة، أو إحداث الفوضى في مجريات التطور الطبيعي للبشر وللحيواناتوالنباتات..، وكمثال على ذلك فقد أثير اهتمام العالم في عام 1982 عندما رأى لأول مرة على غلاف مجلة " نيتشر" الأسبوعية صورة " العنزوف" وهو حيوان يجمع بين جنسي العنز والخروف، وازدادت الحيرة أكثر عندما كشف العلماء عن طموحاتهم في التوصل إلى نوع من الاستنساخ الحيوي للإنسان تحت شعار "إعادة انشطاين إلى الحياة" وتصريح العلماء أنهم بإمكانهم مستقبلا تحديد سلوك الجنين قبل أن يتم الحمل عن طريق إبعاد أو إضافة الجينات التي تحمل استعدادا لصفات وراثية مرغوب فيها مثل القوة الجسمانية. (البقصيمي، 1993،ص 18) فمصير الإنسان المستقبلي وفق هذا المنظور أصبح بيد العلماء الذين بإمكانهم تحديد سلوك الجنين مستقبلا عن طريق التدخل في التكوين الجيني للجنين، أين أصبح الإنجاب تكنولوجيا أكثر منه جانبا إنسانيا.

ومن المشاكل التي أثارتها البيولوجيا الطبية أيضا هو أنها ستفتح الباب أمام التجارة بالأجنة، وأنها ستزيد من حالات الإجهاض خاصة إذا كانت هناك إغراءات مادية، كما أن تكنولوجيا الإخصاب بالرغم من معالجتها للعديد من مشاكل العقم أحدثت مخاوف كثيرة وتساؤلات مثل ما هو مصير الأسرة؟ هل المستقبل سيحمل صورة جديدة لمفهوم الأسرة؟ وإذا اختصر العلماء مدة الحمل في أجهزة غير الرحم كيف يصبح معنى الأمومة التي كان دورها يقتصر على حفظ وتنمية الجنس البشري؟ ما مصير الطفل وإلى من ينتسب؟. كما أن سهولة الحصول على طفل بهذه الطريقة فتحت المجال لنوع جديد من تجارة الرقيق ببيع وشراء الأجنة(العبودية). كما أن الزواج من أجل الإنجاب يفقد قيمته إذا كان بالإمكان الحصول بسهولة على ذلك الجنين. وأين قدسية الإنسان وكرامته من كل ذلك؟. (الحفار، 1984، ص 100)

إضافة إلى تفشي العنف الأسري وإعطاء الشرعية للشذوذ الجنسي والزواج المثلي، وبالتالي ظهور الأسر المثلية وتمييع مفهوم الأسرة الشرعية والتفكك الأسري. وإقامة العلاقات الجنسية بلا ضوابط وجعل الرسالة الجنسية أساسيا للتكنولوجيا الجديدة. (بريمة إبراهيم ، 2014، ص 61) ويمكننا اعتبار كذلك أن مبدأ "تحسين النسل" الذي يرمي إلى تحسين العرق " النقي" وإلى حذف

الآخرين والتميز عنهم أمر مدان إدانة صارمة ومرفوض، إذ يهدف حتى إلى تعقيم بعض الجماعات البشرية التي يحكم عليها بأنها دنسة. (روس، 2004، ص 117) ، ويذكرنا هذا بالعرق النازي الذي يدعي نقاءه بالمقارنة مع باقي الأجناس.

2.3. مشاكل الثورات الالكترونية:

يعتقد العديد من الأفراد أن الثورات الالكترونية محايدة ولا تشكل أي خطورة على البشرية، غير أن الواقع يثبت أنها تطرح أيضا على غرار التطبيقات الفيزيائية والكيميائية مشكلات أخلاقية تظهر مخاطرها في تهديد الحريات المدنية والخصوصية من خلال التصنت والرقابة أي استغلال التكنولوجية الجديدة للمعلومات والاتصال من أجل الجوسسة، وتعميق الفوارق بين الناس الذين يملكون المعلومات والذين لا يملكونها، وبالتالي تعميق الفوارق بين الأمم التي تستثمر استراتيجيا في العلم والتكنولوجيا وبين التي لا تملك من العلم والتكنولوجيا شيئا وتكتفي باستهلاك ما تملك من ثروات ومواد طبيعية قابلة للنفاذ. (موسى، 2013، ص 117) أي أنه إذا كان من أهم سمات مجتمع المعرفة هو " تقاسم المعارف" فإن الواقع يثبت عكس ذلك، إذ نلاحظ وجود مفارقة كبيرة بين الدول النامية والمتقدمة، بالرغم من تزايد عدد مستخدمي الانترنيت على المستوى العالمي إلا أن نسبتها ضئيلة بالمقارنة مع الدول العربية والإفريقية التي لا تتجاوز واحد بالمائة وهي ضئيلة جدا. (أحمد فرج، 2016، ص 115)

وفق هذه المشاكل ظهرت الحاجة إلى ظهور فرع جديد من الأخلاق التطبيقية عرف بمصطلح "أخلاقيات الحاسوب " computer ethics" لتدل على "تطبيقات الفلاسفة المهنيين للنظريات الغربية التقليدية، كالنفعية والكانطية وأخلاق القيمة، في القضايا الأخلاقية التي تتضمن بشكل أساسي ما يتعلق بأجهزة الكومبيوتر وشبكات الحاسوب". (ورد بينام، 2015، ص 181)أي تطبيق مختلف المعايير الأخلاقية من طرف المتخصصون في مجال الحاسوب والمعلومات. وظهر في البداية ما يعرف " بالسبرنيطيقا cybernetics " أو علم التحكم الآلي من طرف "وينر" الذي أعطى دافعا قويا فيما بعد لظهور حقل جديد للأخلاق في مجتمع المعرفة يتعلق بأخلاق الحاسوب باعتباره تنبأ ببعض التأثيرات المحتملة لتكنولوجيا المعلومات على القيم الانسانية مثل الصحة، المعرفة، الحرية، السعادة، القدرات. (ورد بينام،2015، ص ص 182-183) من أجل مواجهة ما يعرف بجرائم الحاسوب المتمثلة في قرصنة البرمجيات، والاختلاس، والتجسس.

3.3. توجيه العلم خدمة لأغراض السلطة والسياسة:

إن ارتباط العلم بالسياسة وبالسلطة في مجتمع المعرفة أصبح يشكل خطرا كبيرا على البعد الأخلاقي للإنسان ويهدد حياته، وذلك من خلال استغلال نتائج العلم وتوجيهها في صالح السياسة العامة التي ترسمها الدولة ووفق القوانين التي تضبط بها سير حياة أفراد مجتمعها.

وعلى أثر ذلك ظهر ما يعرف بمصطلح "البيوسياسة" أي ربط الحياة الإنسانية بمتطلعات السياسة، فالدولة هي التي أوكلت إليها مسألة تدبر حياة الناس في كل ممارساتهم وأن القانون هو الذي يفصل بين الناس بما فيهم الحاكم وهو الذي يحدد طريقة الحياة داخل المجموعة فلا ينظر إلى حياة الإنسان إلا من حيث هو ذات حقوقية، لأن الحياة ليست عبارة عن تركيبة بيولوجية صرفة وخالية من كل التنظيمات الخارجية التي تحيط بها بل تخضع للتوجهات السياسية والقانونية. (الرياحي، 2015، ص ص170-171)

من أجل ذلك أصبحت مهنة الطب ذات قيمة كبيرة بالنسبة للوظيفة السياسية، فالدولة تختار بالاعتماد على معطيات علمية وطبية نوع الأفراد الذين يكون الاقتصاد بحاجة إليهم وهي التي تحدد نمط عيشهم، باعتبار أن الطبيب يمثل أيضا سلطة في اتخاذ قرارات حول تحديد النسل والموت الرحيم، وزرع الأعضاء، وتحديد الولادات والوفيات... ، وعليه فالسلطة لا يهمها حياة الناس في حد ذاتها كقيمة وجودية أخلاقية بل بمدى مساهمتهم في بناء الاقتصاد العام وفق ما يتطلبه المجتمع من خلال حسن استغلال كل قوى الأفراد لذلك كانت صحة الأفراد والبحث عن طرق العلاج هي من أولويات السياسة. وخاصة في ظل الليبيرالية الجديدة التي تستحوذ على كل الممارسات العلمية وفق مبدأ المصلحة الرأسمالية من دون التفكير في قيم أخلاقية مستقلة. (الرياحي،2015، ص ص 174-178)، ويذكرنا هذا بالفيلسوف الفرنسي المعاصر "ميشال فوكو" الذي أثار مشكلة السلطة وعلاقتها بالمعرفة، وكيف تطورت أساليب المراقبة والمعاقبة حسب نمطية الاقتصاد والإنتاج الذي يحكم الأفراد، فما نلاحظه من الظاهر هو تحسين لظروف حياة الناس وتجنبهم للألم المباشر على الجسد، في حين أن الحقيقية تظهر لنا أن التغيير فقط حدث على مستوى أساليب السلطة والتحكم ولم يتحرر الإنسان من الهيمنة والخضوع.

ويمكننا أن نلفت الانتباه إلى أن ظاهرة السباق العلمي بين العلماء تمتد أيضا إلى السياسيين وكذلك رجال الأعمال المشرفة على المؤسسات العلمية من أجل تطوير وتأصيل انتصارات العلم على الإنسان في كل أبعاده وعلى مختلف أشكال حياته اليومية ويتدعم هذا الانتصار بأطراف أخرى أكثر خطورة والمتمثلة في وسائل الإعلام التي تروج تلك البحوث العلمية وإبراز قدراتها على تغيير حياة

الإنسان نحو الأفضل عن طريق اللافتات الاشهارية والحملات الإعلامية، مستبعدة في ذلك المسائل الأخلاقية التي تطرحها تلك العلوم.

4.3. أولوية المكسب المادي على الجانب الإنساني في العلم:

لقد كان شعار الباحثين الأوائل "أنا مستعد أن أدفع عمري من أجل الحقيقة التي أسعى إلى اكتشافها" فهذا ما فعله سقراط في عهد الإغريق، أما الآن في مجتمع المعرفة تغير شعار الباحثين والمبتكرين وأصبح يتلخص في مبدأ "إنني مستعد لأدفع آخر فلس لدي من أجل الابتكار مادام سيعيد لي ما هو أكثر مما دفعت" (الجوزي، 2014، ص24)وهذه الفكرة هي التي سيطرة على أصحاب المعرفة في المجتمعات المعاصرة التي طغى فيها تغليب المال والمادة على القيم الانسانية.

وعليه فمن أهم الظواهر المقلقة في مجتمعات المعرفة تحويل كل شيء إلى سلعة تباع وتشترى من أجل المال، وخاصة في مجال الجنس البشري إذ ظهرت تجارة الجنس، والنساء، والتجارة في الأطفال، وفي الأعضاء البشرية، وهناك أيضا تجارة في معاناة الناس ممن يرغبون في الهجرة غير الشرعية إلى مجتمعات المعرفة الغربية، إضافة إلى التركيز الشديد للثروة في أيدي قلة محدودة من مالكي الشركات العالمية الكبرى. (بريمة إبراهيم،2014، ص 61)

وتراهن الدول المتقدمة على قوتها وطموحها في تحقيق معدلات النمو الاقتصادي والرخاء الاجتماعي على التحكم بأنظمة البحث العلمي بدرجات عالية وربطها بمتطلبات الإنتاج الاقتصادي وإخضاعها في النهاية لمنطق السوق ومتطلباته وبالتالي تزاد المخاوف أكثر حول مجال تطبيقات العلم والتحكم بنتائجه بتدخل مختلف الشركات التجارية والأنظمة السياسية بتحريف مجال تطبيقه واستغلاله لأغراض غير إنسانية تهدد الكائن البشري وكرامته وخصوصيته.

وعليه فالدول التي تملك المعرفة تملك القدرة على التفوق والتحكم في صياغة أنماط الحياة وتشكيل الذوق القيمي والفني من خلال. (طيبي، 2008، ص 154)

أ- هيمنة الأفكار وتمركز قيم السلوك وتسويقه للآخر الذي يدخل في دائرة الاستلاب

ب- إنتاج آليات التحكم في الوعي والذوق البشري وتعمم كمعايير للهيمنة تدخل في كل منتوجات الخدمات الاتصالية

ج- التحكم في مختلف أنماط التفكير من أجل توجيه البشرية إلى نماذج معينة من التقاليد والقيم التي تبتعد عن منظومة الأخلاق الإنسانية، وتؤكد فقط على منطق الاستهلاك.

د- تؤثر على مختلف القرارات وتشارك في صناعة الرأي والتدخل في نظريات النظم والتحكم الفعلي في وسائط الاتصال التي تتحكم من خلالها في توجيه الشعوب التي تفتقد للمعرفة.

بهذا أدى تطور التقنية إلى ظهور نوع جديد من العقلانية يسمى بالعقلانية الأداتية التي قال عنها "ماكس فيبر" أن: "هذا الشكل من العقلانية حفر عميقا في جملة حياتنا الاجتماعية والثقافية، ومن ضمنها البنى الاقتصادية، والقوانين، وحتى الفنون. وعليه فلا يقود نمو العقلانية الأداتية إلى تحقيق ملموس للحرية الشاملة، وإنما إلى ايجاد قفص حديدي من العقلانية البيروقراطية لا فرار منه". (هارفي، 2005، ص33)، أي أن مقولات الحرية هي من باب من التنظير فقط أما الواقع يعكس قيود تلك العقلانية التي يجب ايجاد طرق للتعامل معها وحماية الإنسان من مخاطرها، واللجوء إلى التفكير الفلسفي يعتبر مهما في طرح قضية البعد الأخلاقي لنتائج علوم مجتمع المعرفة.

4. أهمية النقد الفلسفي الأخلاقي لعلوم مجتمع المعرفة:

إن التعريف الذي قدمته منظمة "اليونسكو "لمجتمع المعرفة ياعتباره "المجتمع الذي تقوم فيه عمليات النمو والتطور والابتكار على الاستعمال الامثل للمعلومات وتكنولوجيا المعلومات والاتصال، حيث يولد هذا المجتمع المعرفة، وينشرها لتحسين مستوى المعيشة وتوعية الحياة للمواطنين بشكل مستدام" (أحمد فرج، 2016ص 112) يتضمن أبعادا اخلاقيا وقيمية لتحسين نمط حياته بشكل أفضل عن طريق التقدم في العلم والمعرفة. وبالتالي فأن النمو والتطور والابتكار لا يتم إلا وفق فلسفة تضع المحددات والاولويات والقيم بحيث تجعل من مجتمع المعرفة مجتمعا بالمعنى الفعلي الذي حددمن أجله أهدافا تخدم مصلحة الانسان بالدرجة الأولى.

يعتقد الكثير من الناس أنه في عصر مجتمع المعرفة قد وصلنا إلى مرحلة قد انتهى فيها عصر المعجزات، ولم يبقى سوى العقل البشري المبدع، غير أن العلم يسير بطريقة يصعب التنبؤ بما قد يصل إليه من نتائج يمكن أن نعتبرها من باب المعجزة أو الخيال العلمي، لذلك يستحيل أن نلغي التفكير الفلسفي إزاء ذلك.

هناك العديد من التساؤلات والهجمات التي تثار حول عدم جدوى التفكير الفلسفي في عصر العلم والمعرفة، إذ لا مبرر لوجوده مثل: "أليست الفلسفة في نهاية تاريخها الطويل إلا صحيفة تضم أخطاء الفكر الإنساني وتناقضه؟ أليست الفلسفة تثير من المشكلات أكثر مما تقدم من الحلول. "(

كمال جعفر، 1968، ص 9) والإجابة على هذا التساؤل نجدها واضحة في قول الفيلسوف والطبيب الأمريكي "دافيد رزنيك" من خلال كتابه "أخلاقيات العلم" الذي يمثل أشهر الكتب التي نشرت حول علاقة العلم المعاصر بالأخلاق حيث يقول: "بوصفي فيلسوفا أهتم أكثر بإثارة الأسئلة السديدة وبفهم المسائل المهمة أكثر منا اهتمامي بوضع إجابات مطلقة، ومع ذلك فإن هذه الرؤية الفلسفية يمكن أن تقدم استبصارات ذات قيمة." (ب.رزنيك،1978، ص 30)

فبالرغم من أن الفلسفة لا تستطيع أن تقدم حلولا جاهزة لتلك المشكلات الأخلاقية التي يطرحها تطبيق العلم إلا أن الهدف منها هو التنبيه إلى خطورة هذه التطورات وأهميتها، لما لها من قدرة على تغيير نظام القيم وبالتالي قلب موازين حياة الإنسان، "ويكفينا من الفلسفة أنها دائما كانت قادرة على لفت انتباهنا لما يحدث حولنا، وهذا يؤكد أهمية دورها في حياتنا سواء الفكرية أو العملية". (البقصيمي، 1993،ص 33)

في هذا الطرح نفسه قدم "عبد الغفار مكاوي" مصطلح **'الفلسفة الخالدة'** كنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الفلسفة، وهو النموذج الذي لا يعنى بتقديم أجوبة على الأسئلة التقليدية بقدر ما يعنى بطرح أسئلة جديدة وإثارة مشكلات وقضايا معاصرة. فمن سماتها التوقف عن التماس الحلول النهائية والصيغ المريحة والقوالب الجاهزة، فجوهر الفلسفة يكمن في التجربة الإنسانية المعيشة التي يتشارك فيها كل من الفيلسوف والناس العاديين لأنها تجربة تنبع من الموقف ومن الحياة. (عبد المحسن، د.ت، ص 169)، حيث يقول: "وبهذا يصبح أول حرف في الفلسفة هو الإنسان نفسه الذي يحاول ويعاني ويصارع ويتقدم على الدوام ويحقق نفسه في كل فعل يقوم به كجهد خلاق، وثورة حية متجددة، وتسكن الفلسفة في قلب الحياة والتاريخ في المكان الذي تولد فيه الأحداث باحثة عن المعنى وعن الغاية، مبتعدة عن طموح العمليين وتجريد المذهبيين." (مكاوي، 2009، ص 9)

إن من أكبر الجرائم التي ترتكب اليوم حول الفلسفة هي جعل العلم في مواجهة مع الفلسفة وذلك من خلال التوظيف السياسي والاقتصادي للمناهج الوضعية التي أفرغت العلم من محتواه الإنساني وأقحمته في دراسة مضامين خاصة بالإنسان باستعمال أساليب مفرطة في المادية والنزعة التحليلية التي مزقت الظواهر الإنسانية وحولتها إلى مجرد وحدات كمية خالية من الروح وبعيدة كل البعد عن طبيعتها الواعية والحرة. "فالمراهنة على العلم والنزعة العلمية في المجال الاجتماعي والعلمي يشكل أكبر استخفاف بالإنسان وبالمعاني الإنسانية، واختزال للوجود الإنساني في طابعه المادي، وبالتالي التعامل مع الإنسان بوصفه مستهلكا ومع العالم بوصفه سوقا كبيرة للبضائع التي تنتجها الدول المتقدمة " (بن شريط، 2012،ص202) وبالتالي التضحية بالقيم الإنسانية والأخلاقية التي تشكل بعدا أساسيا للطبيعة البشرية.

تجدر بنا الإشارة إلى أن أهمية الطرح الفلسفي لإشكالية الأخلاق والعلم تم تداوله من قبل الظهور الفعلي لمجتمع المعرفة وما طرحه تطور علومه المعاصرة من قضايا أخلاقية استوجب على الفلاسفة معالجتها، فقد كانت هناك إشارات في هذا الموضوع لبعض الفلاسفة من قبل من أهمهم "كانط" الذي حاول تأسيس نمط أخلاقي جديد يتجاوز به الأخلاق التقليدية، حيث يقول في موضوع العلم والأخلاق: "وإن كان لابد للعلم من أسس راسخة في المجال الطبيعي المادي، فلابد للأخلاق من أسس مماثلة في المجال الإنساني وإنه إذا كان على العقل أن يشرع للتجربة المادية ويضع أصولها ويشكل مجالها ويحدد غاياتها، فإن على العقل أيضا مهمة لا تقل خطرا وهي أن يضع للتجربة الأخلاقية مثل هذه الأصول وأن يحدد لها أيضا الهدف الواضح." (كانط، 1969، ص ص 12-13)

وما كتاب " ادموند هوسرل" "أزمة العلوم الأوروبية" إلا محاولة جادة في نقد هيمنة الوضعية على العقل الأوروبي الغربي فالأزمة لا تمس علمية وصلاحية هذه العلوم بل دلالتها بالنسبة للوجود الإنسان وللحياة، لذلك فهي لا تستطيع أن توجه الإنسان لأنها تقصي من ميدان المعرفة العلمية "الموضوعية" كل الأسئلة والإشكاليات والمفاهيم التي لها علاقة بالوجود الإنساني، كالغاية والمعنى والحرية وغيرها وبالتالي عجزها عن إدراك الحقيقية الكلية، (بومنير، 2012، ص 221) ومن أجل ذلك اقترح المنهج الفينومونولوجي كحل لأزمة العلوم التي أقصت التفكير الفلسفي من خلال إقصائها لقضايا الوجود والحياة حيث يقول هوسرل: "نبدأ طريقنا الجديد بتوجيه اهتمام نظري متواصل إلى "عالم العيش" وحده من حيث هو "الأرضية" العامة للحياة البشرية في العالم، و بالضبط إلى الكيفية التي يتوفر بها على وظيفته كأرضية عامة (هوسرل، 2008، ص 53)

ومن الأقوال الشائعة التي قالها الفيلسوف والرياضي " ألبريت انشطاين" في هذا المجال أنه: "لا يجب علينا أن ننسى الإنسانية بين المعادلات الرياضية والقوانين العلمية"، وفي هذا القول دليل على استشعار خطورة العلم الخالي من القيم الإنسانية والمعاني النبيلة التي يجب مواجهتها بالتفكير الحر والواعي لما يحث للبشرية من مشاكل تورطت فيها بسبب استخدام العلوم بطريقة لا تراعي فيها الأبعاد الإنسانية ولا تخضع لشروط التكامل بين الجانب الإنساني والعلمي.

وتوالت جهود الفلاسفة في كشف فضائح التقنية ومخاطرها على الوجود الإنساني فنجد أن العديد من الفلاسفة قد وجهوا جهودهم الفلسفية نحو مشاكل الإنسان الواقعية، وأهمها المسائل الأخلاقية للعلم المعاصر، فعندما تذكر مشكلة التقنية المعاصرة على الوجود الإنساني إلا ويذكر معها فيلسوف الكينونة "مارتن هيدغر" الذي رأى أن التقنية الحديثة "أصبحت تهدد مصير الإنسان الذي يخشى عليه أكثر مستقبلا من خلال ما سماه "بجنون التقنية" وأن الحل يكمن في الرجوع إلى تحديد ماهيتها ومساءلتها والتفكير في زلاتها لأن الإنسان لا يصبح حرا إلا بقدر ما يكون مندرجا في ميدان

المصير ومستشرفا لمستقبله، لأن مصير التقنية مرتبط بمصير الإنسان لأن سطوها هو سطو ميتافيزيقي فرضته الحداثة." (الفريوي، 2014، ص ص 42-43) ووظيفة الفيلسوف في هذا تتمثل في العمل على إعادة الوجود الحقيقي للإنسان في هذا العالم وهو ما سماه "بالدازين" عن طريق تنمية وعيه لوجوده، لأنه أصبح يعيش حالة من العدمية والاستيلاب لحريته وفردانيته في ظل هذه التقنية التي تشكل خطرا على مصيره.

بهذا أصبحت المسائل العلمية في مجتمع المعرفة تحتل الصدارة في التفكير الفلسفي المعاصر على حساب المسائل النظرية، والأمر الذي زاد قوة في هذا التوجه هو أن هذه العمليات أصبحت تخص الإنسان وليس الطبيعة فقط، مما شكلت خطرا على حياته الإنسانية، يقول بول ريكور: "إن المسؤولية، في عصر التقانة، تمتد بمثل امتداد قدراتنا في المكان وفي الزمان وفي أعماق الحياة الإنسانية القادمة، الموكل إلينا حمايتها، سريعة العطب بالدرجة الأولى. إنها عرضة للفناء حقا... إن فكرة المسؤولية تمضي أمام الطفرات الهائلة التي تصيب الفعل الإنساني في عصر التقنيات" أين أصبح الإنسان كائنا هشا في هذا العصر. (روس، 2004، ص 41)

كما لاحظ أيضا الفيلسوف الألماني" كارل أوتو آبل" أن خطر الإبادة بالحرب والتقنيات الحديثة لا يقتصر على دوائر صغيرة أو حقول خاصة، بل على العكس يطال وجود الإنسانية كلها، فالتقنية الصناعية تقود إلى إشكالية كلية، ومادامت الحياة الإنسانية مهددة يجب أن تطرح بإلحاح المشكلات الأخلاقية النظرية المرتبطة بمسؤولية جمعية، كما يرى أن تأسيس الأخلاق أصبح ضروريا إذ العلم والتقنية يعمل في حقل كلي. (كمال جعفر،1968، ص 68)

فإذا كانت التكنولوجيا الحيوية إحدى المظاهر الحاسمة للتقدم التقني الذي يشهده عصرنا، فإن ثمة سؤال ينفتح على أفق فلسفي لا يقل أهمية وقيمة عن السؤال الأخلاقي وهو ذلك المتعلق بنمطية العقلانية الموازية للتقدم التقني الذي تفتتحه الثورة البيوتقينية في أفق الألفية الثالثة؟ فهذا السؤال يرتبط في وجه منه بصيرورة الكائن المعاصر من حيث هي صيرورة ترتسم في عالم يعيش تحت التأثير المباشر لقوة جبارة وعظيمة تدعى التقنية. فمن الطبيعي أن تطرح هذه التطورات مشاكلها الفلسفية والنظرية على صعيد الموقف الانطولوجي للكائن الحي كما هو الشأن في كل المنعطفات الابستيمولوجية التي عرفها تاريخ العلم. (موسى،2013، ص 115)

فالفلسفة بما تحمله من روح نقدية وقواعد منطقية تبقى هي الملاذ الأخير الذي تلجأ إليه الشعوب عندما تريد المحافظة على كيانها كوحدة بشرية متجانسة داخليا ومختلفة عن بعضها البعض

خارجيا، فالفيلسوف يشكل روح مجتمعه وضميره الحي غير أنه بالمقابل يتجاوز ذلك المجال الضيق ليصل إلى معالجة القضايا المشتركة على المستوى الإنساني العالمي. (السيد، 2002، ص 227)

كما تكمن مهمة الفلسفة في فضح العديد من المغالطات التي تتبناها الدول القوية التي تعتبر نفسها بأنها تشكل في أساسها مجتمعات للمعلومات وللمعرفة على غرار الدول الأخرى التي لا زالت تمثل في مضامينها المجتمعات ما قبل الصناعية، غير أن تلك المغالطات أصبحت تهدد أمن العالم وسلامة البشرية، فالفلسفة "لا يمكنها إلا أن تحمل فكرا إنسانيا يسعى دوما إلى الخير والفضيلة والحق. لذلك تسعى الدول القوية استبعاد الفكر الفلسفي النقدي الواعي الذي من شأنه أن يعمل على مقاومة كل أشكال السيطرة والاستغلال." (بوعلي،د،ت، ص 84)

بهذا لا يمكننا أن نعزل الفلسفة عن المعرفة ضمن تاريخية التطور البشري، وذلك بسبب "كون الفلسفة منذ بداياتها بحثت عن الماهيات المادية والمثالية المفارقة للعقل الإنساني، فقدمت العديد من التعريفات والتوضيحات حول ماهية المعرفة".(روس،2004، ص68)، حيث تنوعت بتنوع المذاهب والاتجاهات الفلسفية ولم تبقى مهمة الفلسفة محصورة في نطاق البحث عن أدوات المعرفة ويقينية نتائجها، بل تجاوز ذلك إلى البحث عن نتائج تطبيقاتها العملية على الجنس البشري وأهم التغيرات التي أحدثتها في نطاق العلاقات الإنسانية والنظم الثقافية للمجتمعات، وخاصة ونحن في عصر يسيطر فيه ما يعرف "بالعقل الأداتي."

فبالرغم من الهجمات التي شنت على الفلسفة وحاولت تقويض الأسس النقدية التي تقوم عليها من أجل إثبات عدم صلاحيتها في مجتمع أصبحت المعرفة شعار بنائه، غير أن بناء مجتمع المعرفة يحتاج إلى أبعاد أساسية يجب أن يولي لها أهمية حتى يحقق التوازن داخل المجتمع ويتفادى الأضرار الجانبية التي لم تكن متوقعة من قبل، وأهمها البعد الأخلاقي لنتائج العلوم الذي أصبح يشكل مبحثا مهما من مباحث التفكير الفلسفي،. فظهرت الحاجة إلى ضرورة استدعاء التفكير الفلسفي بآلياته النقدية في ظل الوضعية التي اقتحمت مجتمع المعرفة حيث تم فيها تدجين العلوم المعاصرة وتوظيفها باتجاهات غير أخلاقية تخدم مصالح المجتمعات التي أنتجتها تحت سيطرة المال والنفوذ. وعليه يجب على الفلسفة أن تحافظ على مكانتها أمام النتائج الباهرة للعلم وما حققه من تطبيقات مفيدة مما جعل البعض يقلل من شأنها ويعتبر بأن العلم هو المفتاح السحري لكل المشكلات التي تواجه الإنسان الأمر الذي شكل تهديدا لعمل الفلسفة في الحياة المعاصرة.

5. الطرح الفلسفي للبيوتيقا في مجتمع المعرفة:

لقد تطورت الأبحاث العلمية في مجتمع المعرفة فيما يتعلق بأخلاقيات البحث العلمي ومحاولة حماية الإنسان من مخاطر التطورات العلمية والتكنولوجية، إذ ظهرت تساؤلات جديدة، أثارتها التطورات الحاصلة في ميدان الطب والبيولوجية، خاصة في الستينيات من القرن العشرين، كتطور عملية زرع الأعضاء، والأجنة. وما نتج عنها من مسائل تتعلق بحياة الإنسان (الإجهاض، التبرع بالأعضاء البشرية، تحسين النسل، عمليات التحويل الجنسي، التصرف في الجينات...). (المؤدب، 2000، ص 5)

على إثر ذلك ظهر ما يسمى بمصطلح" بالبيواتيقا Bioéthique"/ مشتق من Bois وتعني الحياة، ومن Ethos بمعنى الإيتقا أو الأخلاقيات (العرف، العادات، التقاليد)". هدفت إلى الحفاظ على الجنس البشري وشروط بقائه، بعد التهديدات الذي أصبحت تشكل خطرا عليه بسبب تقدم علوم مجتمع المعرفة. إذ عرفها العالم الأمريكي المتخصص في السرطان "فان بوتر رينسلاير Van Potter Rensselayer(1911- 2001م) الذي استعمل المصطلح لأول مرة في مقاله بعنوان(البيوتيقا علم البقاء على قيد الحياة) بأنها تعني" دمجا بين المعارف البيولوجية والقيم الإنسانية". إذ ترمي إلى إحداث التوازن بين تقدم العلم من جهة وحماية الجنس البشري من جهة أخرى من خلال مساءلة القيم والمبادئ إزاء ذلك. (بوفتاس، 2013، ص 7)وهناك من اعتبر بأنها تمثل شكلا من أشكال الأخلاق التطبيقية المعاصرة التي ظهرت في مجتمع المعرفة بحيث "يجمع بين الطابع العلمي نظرا لارتباطه بعلوم الطب والبيولوجيا، والطابع الفلسفي نظرا لتركيزه على القضايا الأخلاقية والفلسفية، التي يطرحها التقدم العلمي والتقني وما نتج عنه من مسؤوليات جديدة يتحملها العلماء والمجتمع. اتجاه الإنسانية." (بوفتاس ،2013 ، ص 5)

تعرف الأخلاق التطبيقية على أنها "دراسة للمعضلات الأخلاقية، والخيارات، والمعايير في وظائف ومهن ومواقف عينية محددة وكيفية تطبيق النظريات والمفاهيم القيمية في سياقات معينة،كالأخلاق الطبية وأخلاق الأعمال الحرة..." علالي، ص109). كما أنها تعد أحدى مستويات الأخلاق، التي تشمل الأخلاق العليا التي تبحث في ما ينبغي علينا فعله من أفعال الخير، والأخلاق المعيارية تبحث في تحديد الأصلح وتقديمه وتفضيله على الصالح من أفعال الخير، أما الأخلاق التطبيقية تبحث في صواب أو خطأ الأفعال التي أنجزت ثم تقوم بنقد الخطأ من هذه الأفعال.

ظهور هذا المصطلح يحي لنا على تنبه العلماء للمشكلات الأخلاقية التي يطرحها التقدم العلمي، خاصة تلك المرتبطة بالعالم الحي كما يفصح أن حقيقة السؤال الايتيقي الذي يلازم انجازات العلوم

وتطبيقاتها ويقلق العلماء والفلاسفة ليس فقط في مجال علوم الهندسة الوراثية وانجازاتها في نطاق الاستنساخ وقدراتها على فك الشفرة الكيميائية وإنما يتجاوزها ليشمل جل العلوم الأخرى التي تتعدى ابحاثها نطاق المختبرات والصياغات الرياضية مثل الفيزياء الجديدة والكيمياء. (المؤدب، ص43)

هناك ارتباط كبير بين الفلسفة والبيوتيقا باعتبارها أساسا فكر أخلاقي جديد، أي تجديد لمبحث أو فرع أساسي من فروع الفلسفة وهو الأكسيولوجيا (مبحث القيم)، حسب التقسيم الكلاسيكي لمباحث الفلسفة، فلقد كان للفلاسفة دور كبير في نشأة البيوتيقا وتطورها، حيث قام "دانيال كالاهان Daniel Callahan " في إضفاء الطابع العلماني على البيوتيقا وفصلها بالتالي عن الأخلاق الطبية الكلاسيكية التي كانت غارقة في اللاهوت المسيحي، واهتم بنشر الفكر البيوتيقي والتعريف به، ومن أهم انجازاته تأسيس المجلة الناطقة بالبيوتيقا والمشاركة في تأليف أول موسوعة بيوتيقية. (البقصيمي،1993، ص 132) ، ونشير هنا إلى أن الأخلاق الطبية ليست حديثة العصر بل موجودة في عمق حضارات الإنسان عبر تاريخه الطويل، فقد حاول الإنسان أن يضع قوانين تحدد سلوكه ومعاملاته حماية للمجتمع من التدهور وكماثل على ذلك ما نجده في شريعة ملك بابل العظيم " حامورابي" 2100ق م التي شملت كل جوانب الحياة العملية في الطب بحيث وضعت قواعد مشددة تحدد أجور الأطباء وتحمي المرضى وكانت قوانين تراعي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمرضى وتعتبر الطبيب مسؤول عن أي ضرر يلحقه بالمريض أثناء علاجه، وكذلك اعتبار أن قتل النفس أو الإجهاض جريمة يعاقب عليها القانون.

كما نجد الفيلسوف الألماني " هانس جوناس Hans Jonas" الذي ساهم بأفكاره في عالمية الفكر البوتيقي والتأكيد على طابعه الشمولي من خلال ربطه أيضا بأخلاقيات البيئة. وأيضا تطوير أحد المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر البيوتيقي وهو مفهوم المسؤولية، والتنبيه إلى خطورة الأبحاث الطبية البيولوجية بشكل خاص والأبحاث العلمية بشكل عام على حاضر ومستقبل الإنسانية. ولقد كان للفلاسفة من أبرز أعضاء تشكيل اللجان الأخلاقية، وظهر ما يعرف بشخصية عالم الأخلاق بحيث يرتبط بالأخلاق كفكر فلسفي ويرفض الارتباط بها كفكر ديني. (موسى، 2013، ص 116)

لقد عمل الفكر البيوتيقي على تجديد وإغناء مضامين بعض المفاهيم الأساسية والقديمة مثل مفهوم الواجب والحق والإحسان والمسؤولية ومفاهيم أخرى ذات ارتباط بعلاقة الطبيب بالمرضى مثل مفهوم الموت الرحيم، والإنجاب الاصطناعي والتوالد الجنسي، وتحسين النسل. ويعتبر مفهوم "حقوق الإنسان" من أهم المفاهيم التي تم اغناؤها في هذا الإطار حيث تبلور مفهوم حقوق المرضى والأجنة وكذا الأشخاص الذين تجرى عليهم التجارب وكذا حقوق الأجيال الإنسانية القادمة وعلى رأسها المحافظة على هويتها وتنوعها. (غريب،2009، ص 195)

أصبح موضوع الفكر البيوتيقي يتمثل في القضايا الأخلاقية التي أفرزها التقدم الحاصل في الميدان الطبي البيولوجي وما يرتبط بها من قضايا أخرى فلسفية وقانونية ودينية واقتصادية وبيئية، وغايته الأساسية اقتراح المبادئ الأخلاقية التي يجب أن تنظم الممارسة العلمية من أجل لحفاظ على كرامة الإنسان وعلى وحدته وهويته وتميزه الوجوده.

إن كل هذه الأسئلة والانشغالات التي طرحها الإنسان باتجاه نتائج علوم مجتمع المعرفة ترتبط بموقف الإنسان الأخلاقي من عدة مفاهيم مثل الضمير، المسؤولية، الوجود الإنساني، قدسية الحياة، كرامة الإنسان وغيرها، فضلا على أنها تجعل الإنسان مجرد ظاهرة كونية كغيره من الظواهر أو مجرد مجموعة من العناصر الكيميائية. ولكن ما موقف الفلسفة من كل ذلك؟

إن الفلسفة لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الأخطار أو أن تكتفي بموقف المتفرج من مشكلات بالغة الأهمية، لذلك لا بد عليها أن تخرج عن إطار التأمل النظري المجرد لتندمج في واقع هذا العالم وتثبت أن لها دورا في حياتنا ومستقبلنا وأنها متجددة وحيوية ومسايرة للعصر، فقد أسهمت في هذه المجالات العلمية الجديدة التي ظهرت في مجتمع المعرفة عن طريق ما يعرف ب "الأخلاق التطبيقية أو العملية" من أجل مساعدة الإنسان لإيجاد إجابة عن تساؤلاته والمشاكل الأخلاقية التي تقلقه. (البقصيمي، 1993،ص 100)

ونظرا للمشكلات التي طرحها العلم المعاصر قام الفلاسفة بتوجيه اهتمامهم من البحث في القضايا التجريدية وتحليل العبارات إلى الاتصال بالموضوعات العينية والواقعية والاحتكاك بالواقع لمعالجة احتياجات مجتمع المعرفة، وبالتالي البحث فيما سمي بالاخلاق التطبيقية لقد أبدى الفلاسفة خلال العقدين الأخيرين اهتماما متزايدا بموضوعات الأخلاق التطبيقية، إذ تكاثر المتخصصين في هذا المجال فظهر تخصصات مثل الأخلاق الطبية، الأخلاق التجارية، المهنية، السكانية، الزراعية، الأكاديمية وغيرها. (البقصيمي،1993، ص 60)

يرى "استيفن تولمن Stephen Toulmin " أن الطب بشكل خاص والتكنولوجيا الطبية عموما أنقذت حياة الفلسفة وجعلتها تنشط من جديد في قضايا معاصرة تهم المجتمع، حيث يقول في ذلك." وإذا كان رأي كهذا متطرفا نوعا ما، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن التطورات في مجالي الطب والبيولوجيا أدت إلى إعادة إحياء الفلسفة، بحيث أصبح لها دور فعال في المجتمع مثل بقية العلوم، بل ربما أصبح القرن القادم قرن "الأخلاق العملية" (البقصيمي،1993، ص 61) لأن كل مشكلة تواجه الإنسان تثير تساؤلات أخلاقية تجعله يبحث عن الرد فلا يجده إلا من خلال الفكر الفلسفي.

وعليه من المهم أن يتعلم العلماء كيف يدركون الحيثيات الأخلاقية في العلم وأن ينظروا إلى العلم على أنه جزء من سياق اجتماعي واسع يثمر نتائج مهمة للجنس البشري، لذلك يعاني المجتمع عندما يتبنى الباحثون اتجاها يتجاهل المعايير الأخلاقية حين البحث عن المعرفة. (ب. رزنيك، 1978،ص 250) وفي هذا دعوة إلى ضرورة تحمل العلماء لمسؤوليات أبحاثهم.

إن القدرة الهائلة على التحكم في طبيعة الإنسان وفي قدراته، ينبغي أن تقترن بها قدرة مماثلة على التحكم في التنظيمات الاجتماعية البشرية، وإظهار الحاجة إلى نوع جديد من السلطة ومفهوم جديد للعلاقات بين البشر من أجل ضمان عدم استغلال تلك البحوث العلمية ضد مصلحة الإنسان. (زكرياء،1978، ص 193)

فالحاجة إلى الفلسفة أصبح أمرا ملحا وبالغ الأهمية في حياتنا المعاصرة أي(عصر مجتمعات المعرفة) نظرا لما آلت إليه المجتمعات من تدهور في الفكر وأشكال السلوك والأخلاقيات العامة وخاصة في مجال العلم، حيث تصبح ضرورة وليست ترفا علميا أو ممارسة مثالية لا جدوى منها، ففي مثل هذه الظروف تتحول إلى نشاط عقلي واعي يفسر لنا العالم من حولنا، بنظرة حرة متعمقة تراجع الواقع وتحلله عن طريق النقد الفلسفي البناء المنفتح من أجل الصالح العام لأنها فعل لا يتجاوز ولا يعلو عالم الحياة اليومية والمنافع العملية المباشرة. (الريدي، 2013، ص ص 330-331)

وبما أن العلم الطبيعي هو الذي خلق مشكلات أخلاقية، فإن العلم الذي بإمكانه حل تلك المشكلات هو العلم الإنساني، لأن المشكلة الأساسية تكمن في انعدام التوازن بين الميادين الطبيعية والإنسانية، فالمجتمعات البشرية لا زال يحكمها منطق التنظيمات العشوائية والارتجالية، المبني على المصلحة والسلطة، فتفكير الإنسان في أهدافه العامة وفي طريقة تنظيم مجتمعه لا يزال يمر بمرحلة قبل العلمية، لأن تحكمه في مجاله الإنساني الاجتماعي لم يصل بعد إلى مستوى تحكمه في الظواهر الطبيعية والمادية. (زكرياء، الصفحات 203-205)

6. خاتمة:

إذا كانت الفلسفة المعاصرة تحاول أن تعزز وجودها في هذا العالم وتؤكد ارتباطها بالواقع اليومي المعاش للإنسان المعاصر، فإن البحث في أخلاقيات العلم في مجتمع المعرفة يمثل أهم الأدوار التي يمكنها أن تقوم بها وتثير اتجاهها تساؤلات تفتح بها سبل التعامل مع الوضع العلمي الجديد، حتى تحافظ على الطبيعة البشرية من خلال بناء مجتمع معرفة قائم على أسس أخلاقية من جهة أولى كما يحافظ على الأهداف الأساسة التي بني من أجلها من جهة أخرى، وهي خدمة الانسانية جمعاء

وتحسين مستوى معيشتهم في هذا المجتمع، وبالتالي فإننا اليوم أمام تحدي كبير يكمن في ضرورة المراهنة على الفكر الفلسفي الحر وإشاعته بشكل منهجي وجعله يساير بشكل نقدي مستمر ومنظم لما تحدثه العلوم المعاصرة، وذلك من أجل الارتقاء بمجتمع المعرفة وفق مطلب ايتيقي وقيمي وكذلك وفق مطلب علمي متطور، لأن الفلسفة كممارسة وكآلية تفكير ستظل ملازمة للدراسات العلمية والأكاديمية.

7. قائمة المراجع:

أحمد فرج ,حنان .(2016) .*دور مؤسسات المعلومات في دعم مجتمع المعرفة وتنميته* .مجلة مكتبة فهد الوطنية مجلد 22، العدد.

البقصيمي ,ناهدة .(1993) .*الهندسة الوراثية والأخلاق* .عدد .174. سلسلة عالم المعرفة.

الحفار ,محمد سعيد .(1984) .*البيولوجيا ومصير الإنسان* .الكويت. سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الرياحي ,نعيمة .(2015) .*بيوتيقا أو بيوسياسية الأخلاق التطبيقية، مجلة دفاتر فلسفية. عدد 9* .

المؤدب ,البشير .(2000) .*البيوتيقا بين العلم والايديولوجيا* .المجلة التونسية للدراسات الفلسفية. عدد 25.24

برزنيك ,دافيد .(1978) .*أخلاقيات العلم، ترجمة عبد النور عبد المنعم*. الكويت :عالم المعرفة.

بريمة إبراهيم ,محمد الحسن.(2014) *العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالتهما على مفهوم مجتمع المعرفة*.

بن شريط , عبد الرحمان .(2012) .*مواجهة العولمة بين الفلسفة والعلم* .الرباط :منشورات ضفاف، دار الأمان.

بومنير ,كمال .(2012) .*حول النقد الفلسفي للعلم والتقنية في الفكر الألماني المعاصر، ضمن كتاب جماعي (حوار الفلسفة والعلم سؤال الثبات والتغير)*. ط 1 .منشورات الاختلاف.

روس ,جاكلين .(2004) .*الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العلو* .ط .1. بيروت، لبنان :عويدات للنشر.

زكرياء ,فؤاد .(1978) .*التفكير العلمي* .الكويت :سلسلة عالم المعرفة.

سبيلا ,محمد .(2006) .*زمن العولمة* .ط .1.دار توبقال للنشر.

طيبي ,محمد .(2008) .*المنظومة اللغوية والعلاقات الثقافية والدلالية الجديدة في مجتمع المعرفة، أعمال الندوة الوطنية :الطريق إلى مجتمع المعرفة وأهمية نشرها باللغة العربية* .الجزائر :منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.

عبد المحسن ,ماهر .(د.ت.) *قراء في مدرسة عبد الغفار ميكاوي الفلسفية* .مجلة أوراق فلسفية.

عزاز ,كمال .(2007) .*آفاق وامكانيات استخدام نظم المعلومات الجغرافية والنشر الالكتروني في تنمية المحتوى الرقمي في الوطن العربي* .عمان :سلطة عمان.

علالي ,هناء .(2015) .*أخلاقيات العلم قراءة في كتاب "أخلاقياة العلم" لـ :ديفيد رزنيك*. مجلة أبعاد . مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، العدد.2 .جامعة وهران:

غريب ,مختار .(2009) .*الفلسفة السياسية من المفهوم الكلاسيكي إلى البيواتيقا* .الجزائر :مؤسسة كنوز.

كانط ,إمانويل .(1969) .*أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي* .ط.2. بيروت :دار النهضة العربية.

كمال جعفر ,محمد .(1968) .*في الفلسفة والأخلاق* .القاهرة :الكتاب الجامعي.

كمال عزاز آفاق وامكانيات استخدام نظم المعلومات الجغرافية والنشر الالكتروني في تنمية المحتوى الرقمي في الوطن العربي، سلطة عمان،2007 ، ص 217.

معلوف ,جوزيف .(1997) .*الأخلاق والطب* .لبنان :المكتبة البوليسية.

مكاوي , عبد الغفار .(2009) .*مدرسة الحكمة* .القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب.

هارفي ,دفيد .(2005) .*حالة ما بعد الحداثة :بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة محمد شيا* .بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.

هوسرل ,ادموند .(2008) .*أزمة العلوم الأوروبية والفينمنولوجيا الترانسندتالية، ترجمة إسماعيل مصدق* .ط .1 بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.

ورد بينام ,تيرال .(2015) .*أخلاقيات الحاسوب والمعلومات، ترجمة محمد عبد الرؤوف، عبير سعد*. مجلة دفاتر فلسفية. العدد .9

الجوزي ,ذهبية .(2014) .*أخلاقيات المعرفة في ظل مجتمع المعرفة*. مجلة الاقتصاد الجديد. المجلد 2 .العدد11 .

الريدي ,غادة .(2013) .*لم الفلسفة*. مجلة أوراق فلسفية، العدد .36. الجمعية الفلسفية المصرية.

السيد ,ياسين .(2002) .*العولمة والعالمية* .ط 2 .دار النهضة مصر للطباعة والنشر.

الفريوي , علي حبيب .(2014) .*هيدغر ومساءلة الحداثة للانفتاح على سؤال المستقبل* . مجلة مقاربات فلسفية. العدد.3 .

باخوس ,نوال .(د .ت). *الأثر الفني لدى كانط والرهانات البوثيقية*. مجلة أوراق فلسفية. العدد.36.

بوفتاس ,عمر .(2013) .*البيواتيقا :نحو فكر أخلاقي جديد*. مجلة أوراق فلسفية، العدد36. القاهرة :إصدارات الجمعية الفلسفية.

روس ,جاكلين .(2004) .*الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العلو* .ط1.بيروت، لبنان :عويدات للنشر.

فروم ,إ .(2008) .*أزمة الحرية* .الجزائر :دار المعرفة.

موسى ,عبد الله(2013) .*الفعل في الفلسفة التطبيقية. مجلة أوراق فلسفية*. العدد .36